بأية حضارة نتثقف

الحضارة الشرقية القديمة أم الغربية الحديثة ؟

— ١ —

ان الاقطار الشرقيـة فى بحثها عن الرقي والتهذيب وسعيها اليه تقف بين ثقافتين : الاولى الثقافة الشرقية القديمة والثانية الثقافة الغربية الحديثة. فهي اما ان تستمد روح رقيها من تلك الحضارة الشرقية البائدة فتستضيء بنورها وتتثقف بثقافتها وتنهج على وسائلها . . واما ان تعول في اعتلائها وتهذيب افرادها وانقاذهم من الانحطاط والهوان على هذه الحضارة الغربية « الاوربية والاميركية » الراهنة . وعند ذلك تتمشى على الطرق والمناهج الغربيـة وتسيغ مدنيتهم وتتخذ من علومهم وآدابهم وصنائعهم ومعارفهم ذرائع للتهذيب ووسائل للاصلاح .

فأي الحضارتين يجب ان ننظرها بعين الاعتبار ونعول عليها فى اتخاذ المثل العليا للاصلاح والارتقاء ؟ هذا ما يجب علينا تبيانه بهذه العجالة .

ويخلق بنا لتفضيل احدى هاتين الحضارتين على الاخرى والاخـذ بتلابيبها ان نتفحصهما جيداً وندقق بامعان ما امتـازت به كل واحدةٍ منهما عن الثانية . لـكي نتثقف باحداهما متى رأيناها صالحةً لنا ملائمة لعصرنا هـذا .

فما هي اذاً ثمار الحضارة الشرقية القديمة التي نستطيع ان نعرف بواسطتها قيمة ما انتجته هذه الحضارة ومقدار ما فيها من غزارةٍ علمية وثروة فكرية تنفعنا اذا تشربنا بروحها وتمشينا على سننها ؟

لم تقم فى الشرق حضارة واحدة وانما قامت عدة حضـارات مختلفة بحسب اختلاف الاصقاع والازمنة فيجب ان ننظر الى اهمها لنتخذه قاعدةً لتمحيصنا وبحثنا . واهم هذه الحضارات بلا ريب هي الحضارة الاسلامية التي ازدهرت واشرق سناؤها فى القرون الوسطى . فلنتدبر اذاً ما خلفته هذه الحضارة من ثمار قرائح اربابها ونتـــاج معارف من ظهر فيها من العلماء والمخترعين والمكتشفين ونقارنها بما ولدته الحضارة الغربية من المخترعات والمكتشفات وغيرها من المنتوجات الفكرية .

يقول الاستاذ العقاد : « انني لا اقيس مدنية الغرب بعدد مخترعاتها الحديثة ولكن بالملكات والمواهب التي انتجتها . فهل بين هذه الملكات ما هو اعظم واجل وارفع من الملكات التي ابدعت صنـاعات المدنيات الغابرة وعلومها وفنونها . ان كانت ثمة فرق فهو يسير جداً . نعم يسير جداً بالنسبة الى غطرسة المدنية الغربية ودعواها . وانا اعتقد اعتقاداً جازماً ان القمة الروحية التي ارتقى اليها نساك الشرق وفلاسفته لم يبلغها غربي ممن نعرفهم ونقرأ كتاباتهم . وان هذا التقصير عيب كمين فيهم ويكفي ان اوربة لم تنبت نبياً وانها عالة على الشرق فيما تدين به [1] » الخ .

هذه الكلمة الوجيزة اقتطفناها من رسالةٍ للعقاد وهى كلمة جامعة لأهم ما يفضل الشرقيون به مدنيتهم على مدنية الغرب الحاضرة ويميزونها عنها . فلننظر هل ان ما ورد فيها من الحجج كافٍ لأثبات ان المدنية الشرقية قد بلغت من السمو الفكري والرفعة الروحانية مالا قبل للمدنيـة الغربيـة بالوصول اليها والبلوغ الى ذروتها ؟

---

(١) الفصول صفحة ١٣٩ الطبعة الاولى

اذا تصفحنا تواريخ المدنية الاسلامية نجد ان للمسلمين اليد الطولى فى اكثر الفنون والعلوم التي تمارس فى عصرنا هذا . فقد مارسوا الطب وغيروا علاجات كثير من الامراض التي كان الاطباء يعالجونها قبلهم بالأدوية الحارة كاللقوة والاسترخاء والفالج وغيرها الى الأدوية الباردة وانهم اول من استعمل البنج فى العمليات الطبية وقد احدثوا طرقا كثيرة لعلاج مختلف الامراض كالسل واليرقان والهواء الاصفر وقدح العين وغيرها من المعالجات (١) التي لم تكن معروفة عند الامم القديمة . ومن مآثرهم فى علم الطب انهم اسبق الامم الى البحث فى الجدرى والحصبة والحمى القرمزية (٢) وكثير امثالها . كما انهم سبقوا غيرهم في تأسيس الحوانيت الصيدلية والفوا قبل غيرهم فى الاقرباذين وعملوا كثيراً من التراكيب الصيدلية فى الدهونات والمراهم وانواع العطور وتقطير المياه وغيرها .

اما فى الكيمياء فلهم حظ وافر من الاختراع والاكتشاف . وقد شهد لهم فى ذلك الفيلسوف الشهير الدكتور غوستاف لوبون . اذ قال فى خلال كلام له : « فأم الاجسام كالكحول والحامض النترى والماء الملكى وملح الامونياك ونترات الفضة والزرنيخ والبورق وغيرها قد كان يجهلها اسلافهم كل الجهل . ولم يكتشفها الا العرب . واكتشفوا هم ايضا اهم العمليات الكيماوية . وعندما يقول البعض ان مخترع الكيمياء هو لافوازيه (Lavoisier) يفسون ان العرب منذ نحو الف سنة كان لهم معامل خرجت منها اكتشافات لولاها لما توصل لافوازيه الى اكتشاف » (٣)

ولم يغفلوا عن ممارسة علم النبات فقد اتقنه الكثيرون من علمائهم

(١) تاريخ التمدن الاسلامى الجزء الثالث . (٢) مدنية العرب فى الجاهلية والاسلام . (٣) مجلة الهلال السنة الـ ٣٤ .

وجابوا الاقطار لمعرفة مختلف الحشائش والنباتات ووضعوا المؤلفات القيمة فيه دونوا فيها خلاصات ابحاثهم وتنقيباتهم . فمنهم ابن البيطار الطائر الشهرة وصاحب كتاب المغني فى الادوية المفردة . وكتاب جامع مفردات الادوية والاغذية المطبوع فى مصر والمترجم الى الالمانية والافرنسية . ألفهما بعد ان اطلع على كتاب (ديسقوريدس) فى علم النبات ... ومن اشباهه عدة علماء دونت سيرهم ومآثرهم في الكتب التاريخية .

ولهم فى علم الفلك آراء ونظريات لم يسبقهم اليها احد من الامم القديمة كالكلدانيين واليونانيين وغيرهم . فقد اخترع بنو شاكر آلات الرصد مثل ذات السمت وذات الارتفاع وذات الاوتار وغيرها . واستخدموا الجيوب والاوتار في قياس المثلثات والزوايا . وابتكروا الرقاص (البندول) لقياس الوقت وهم الذين قاسوا درجة نصف النهار واستعملوها لمعرفة محيط الارض وذلك فى زمن المأمون . وقد كثرت مؤلفاتهم فى علم الفلك ومن اشهر العلماء الذين الفوا فيه الفيلسوف الكندي فقد ألف ٣٥ كتاباً والفارابي والبيروني صاحب كتاب الآثار الباقية عن القرون الخالية . وكتاب التفهم لاوائل صناعة التنجيم . والقانون المسعودي وغيرها . كما ان كثرة المؤلفات التي ألفها علماء المسلمين في علم الجغرافيا تدل على تضلعهم وطول باعهم فى هذا العلم ومن اشهر الكتب التي ألفت إبان تمدنهم كتاب صور الاقاليم لأبي زيد البلخي وهو اول كتاب الف على نهج الجغرافيا اليونانية وكتاب المسالك والممالك لابن حوقل . ومسالك الممالك وكتاب الاقاليم للاصطخري . والمسالك والممالك لابن خرداذبه . والبلدان لليعقوبي . والبلدان لابن الفقيه . والاعلاق النفسية لابن رسته . وصفة جزيرة العرب لابن الحائك . ومعجم ما استعجم والمسالك والممالك لأبي عبيد البكري . ومعجم البلدان لياقوت

الحموي . ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الادريسي . وكثير غيرها من المؤلفات الهامة التي يطول بنا شرحها . فهذه المؤلفات واشباهها تبرهن على ما كان للمسلمين من معرفة واسعة فى علم الجغرافيا .

اما العلوم الرياضية فلا تسل عن تعمقهم فيها وخوضهم فى غمارها . فقد نقلوا الارقام الحسابية من الهندية الى العربية . ومنهم نقلها الافرنج الذين لايزالون ينسبون تلك الارقام الى العرب . ولهم فضل كبير في وضع علم الجبر بنوع خاص . فانهم استعانوا على ذلك بما كان عند اليونان والهنود والفرس من القواعد الجبرية المتفرقه اشتاتاً فجمعوها واستخرجوا منها قواعد جديدة . واول من فعل ذلك الخوارزمي صاحب كتاب الجبر والمقابلة ولهم عدا ذلك ابحاث واشتغالات وتآليف هندسية وحسابية يضيق المجال عن تعدادها .

واعتنوا عند ازدهار حضارتهم باتقان الفنون الجميلة مثل الموسيقى والغناء والرقص والتصوير وما ضارعها . فهم وان لم يجيدوا الاشتغال بها . كما اجادوا الاشتغال بسائر العلوم والفنون . ولكن في آثارهم ومبتكراتهم التي تختص بهذه الفنون دليل واضح على اهتمامهم لها .

فقد حاولوا اتقان فن الموسيقى منذ العصر الأموي . وقد رحل فى ذلك العهد سعيد بن مسجح فى طلب الانغام والالحان الى البلاد الفارسية والى الشام حتى جمع كثيراً من انغام الفرس والروم واختار أشدها ملاءمة للذوق العربي ونقلها الى العربية واشتهر بعد ذلك كثير من المغنين الذين أخذوا عنه وساروا على طريقته مثل ابن سريبح والغريض ومعبد وحكم الوادى وفليح ابن أبي العوراء وسياط ونشيط وعمر الوادى وابراهيم الموصلي وابنه اسحاق

الموصلي وغيرهم من الرجال . ومثل جميلة وحبابة وسلامة وعقيلة وغيرهن من النساء . (١)

وذلك فضلاً عما الفوه من الكتب في فن الموسيقى والغناء ومن اشهر المؤلفين يحيى بن مرزوق الذى الف كتابا جمع فيه ١٢٠٠ صوت . ومنهم أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب الاغاني الذى جمع فيه المائة صوت التي اختارها للرشيد ابراهيم الموصلي واسماعيل بن جامع وفليح بن العواد .

ولقد مارسوا ايضاً فني الرقص والتصوير . ولكن نضرب الآن صفحاً عن شرح مايتعلق بهما مخافة التطويل . ولانهم لم يبرزوا فى الفنون الجميلة كما برزوا بغيرها . وان اهتموا بها اهتماماً زائداً . اما فى الادب فليس فيه مايشوق الباحث الى البحث عنه وتمحيصه . فليس فيه مايعزي بالنفس ويقربه اليها . لان الادب متى كان قوامه رنين الالفاظ وعماده زخرفة العبارات والغوص على غريب الكلمات وعدم المألوف منها . كالادب العربي فيجدر بالمنقب الباحث ان لايصرف وقته فى تمحيصه واستجلاء غوامضه .

واما التاريخ فان اشتغالهم به وكثرة مؤلفاتهم فيه معروف لايحتاج للشرح . وان كان المؤرخ الحديث يتعب فى استجلاء الحقائق من تآليفهم المطولة لاكتفائهم بسرد الروايات دون تمحيصها ونقدها سوى ابن خلدون صاحب المقدمة الشهيرة .

هذه فذلكة وجيزة جداً اتينا بها لنذكر أهم ما اتاه المسلمون من المآثر العلمية وما انتجته قرائحهم من الابتكارات والاختراعات . وما وفقوا اليه من الاكتشافات فى خلال تمدنهم الغابر وحضارتهم السالفة .. وما اتينا بهذه الفذلكة الا لكي ننظر بامعان وروية هل تنمو نهضتنا الحاضرة اذا جعلنا

(١) تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الثاني صفحة ١٣٤ .

عمادها دراسة ماخلفته لنا هذه الحضارة من الآراء والمكتشفات والنظريات دون التطلع الى الحضارة الغربية الراهنة والتزود منها والاغتراف من معين علومها وصنائعها وفنونها ؟

او ان هذه الحضارة الاسلامية ليس فيها من الغزارة الذهنية والمنتجات الفكرية الصالحة مايقوم أودنا وينهض بنـــا الى درجات السمو والاعتلاء مالم نعكف على العلوم الغربيـة فندرسها ونقبل على الثقافة الغربية فنتقبلها ونتثقف بها . علماً بان نهضتنا لا تتوطد اركانها وتشتد اسسها اذا لم نأخذ عن الغرب وسائل حضارته ونجاريه فى اسباب مدنيته ؟

ولـكني بعد التفكير الطويل والامعان المتواصل فى هذا الموضوع لقد رأيت ان نبـــذ الحضارة الاسلامية القديمة اصلح لنا من الاعتماد عليها . والتثقف بهذه الحضارة الغربية الحاضرة أعظم جدوى واحسن عقبى . وذلك لسببين :

الاول — ان الحضارة الاسلامية القديمة لا تماشي العصر الحاضر . ولا تقوى على الثبات امام صدمات الحضارة الغربية . فنحن نعيش فى عصر لا تقدر حضارتنا القديمة اذا رجعنا اليها ان تسعفنا فيه وتنيلنا أية فائدة .

الثـاني — ان الحضارة الغربية الحديثة قد ورثت من جميع المدنيات القديمة آدابها وعلومها ومعارفها وصنائعها وفنونها . ومن جملة هذه المدنيات المدنية الاسلامية الغابرة . فمن ثمار هذه المدنيات جميعها ومنتوجاتها الذهنية قد تكونت المدنية الغربية . واضافت ذلك كله الى ما اكتشفه علماؤها واخترعوه من المبتكرات العديدة والاختراعات الجمة .

(يتبع) عبد الغنى شوقي

صفحة منه تاريخ الرسمال فى العالم :

مورغان الاميركى
كيف اصبح غنيا عظيما ؟

حوالي سنة ١٩٠٠ كان فى اميركة ثلاثه من الاغنياء العظام . أولهم (روكفلر) وكان يملك مليارين ، والثـاني (كارنجي) وكان يملك ملياراً ونصف ، والثالث (مورغان) وكان يملك سبعمائة وخمسين مليوناً . ولم يكن اذ ذاك ذكر لأعظم اغنياء اليوم : (فورد) .

وكان يلقب الاول بملك النفط ، والثاني :ملك الفولاذ ، لسيطرتهما على معظم منابعهما واسواقهما . فاما الثالث فكان يلقب بملك البورصة . لأنه أثرى بواسطتها ، وهو قاعد على كرسيه فيها بدون أن يعمل عملاً مثمراً منتجاً فيه خير للانسانية ونفع .

وقد تمتع هذا الرجل بفضل غناه الفاحش واموالـه الطائلة التي جاءته من طريق المضـاربات ، بصداقة ملك انكلترا ادوار السـابع كما تمتع بعطف امبراطور المانية !!

وكان رجلاً فوق النظام الاجتماعي فى اميركة ، يتحكم بالتجارة والاموال تحكم الملوك برقاب الناس في الازمان الخالية . ومما يؤثر عنه : انه جاءه ذات يوم وهو مقيم فى قصره خارج مدينة نيويورك ، الراهب (بوتر) ؛ كضيف وكان موعد القطار السريع الراجع الى نيويورك قد حل . ولم يحن حين الطعام ؛ فرجح الضيف المبادرة الى العودة بالقطار قبل تناول الطعام . قال (مورغان) : كلا . لابد من تناولك طعامي وسيقلك الى المدينة قطار سريع .